الباب الثالث

بلاد يام[1]

٢٥ يونيو إلى ٢٤ يوليو ١٩٣٦م

١٢ أكتوبر إلى ٣ نوفمبر ١٩٣٦م

---

(١) بلاد يام في نجران نسبة إلى يام بن أصبي بن دافع بن مالك بن جُشَم بن حاشد، فهي بذلك فرع من حاشد بن همدان واولد يام بن أصبي: ــ جشم ومذكراً، وهما فرعا يام إلى يومنا الحاضر. وكان من يام رجال معدودون قادة وشعراء وعلماء في الجاهلية والإسلام. للمزيد انظر: غيثان بن جريس. **نجران**، جـ١، ص٣٨ ــ ٤٠ .

كما انظر شجرة يام، في **المرجع نفسه**، ص ٤٤٦ ــ ٤٤٧ . (ابن جريس).

الفصل الحادي عشر

عتبة نجران[١]

تتبعنا مجرى شعيب الحمى عندما واصلنا رحلتنا، لمسافة ميل ونصف الميل إلى موقع التقائه مع شعيب سيلة. واصلنا سيرنا من عند هذا الموقع وبعيداً من المجرى الذي يتجه ناحية شرق الجنوب الشرقي إلى حيث رمال الصحراء، في اتجاه جنوبي شرقي فوق الطرف الخارجي للهضبة الصخرية الرملية أثناء انبساطها فوق السهل.

كان سيرنا جيداً على أرض رملية وطموية مع مساحات حجرية من حين لآخر وتلال منخفضة على جانبينا. عبرنا شعيب مخش بعد مسيرة ميلين ونصف الميل الذي يقبل من ناحية التلال على اليمين من موقعنا ليتحد مع شعيب الحمى في نهاية الأمر، وفيما يليه، فهو يخرج إلى سهل بركاني واسع، حصوي. يمكننا رؤية هضبة النقا الصغيرة السوداء وهي بارزة من بين رمال الربع الخالي، إلى البعيد ناحية الشرق، بينما يقع إلى ناحية الجنوب الغربي تل قطن البارز المميز، وإلى جهة الشمال الغربي توجد أرض الحمى. اخترق طريقنا رافد آخر للحمى، على مسافة من شعيب نعوان[٢]. وانطلقنا بسرعة جيدة فوق سهل رائع رملي، منقط

---

(١) لمزيد من المعلومات عن جغرافية وتاريخ نجران انظر: حسين علي المسري. «نجران ودورها السياسي والاقتصادي» **مجلة المؤرخ المصري**. جامعة القاهرة، كلية الأداب، عدد (٩) (يوليو ١٩٩٢م) ص ٤١ ــ ٩٠؛ غيثان بن جريس. **نجران، دراسة تاريخية حضارية**، حـ١، ص ٣٠ وما بعدها؛ عاتق بن غيث البلادي. **بين مكة وحضرموت**، ص٢٢٢ وما بعدها، عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ٣٩١ ــ ٤١٠ .

(٢) الاسم الصحيح هو (نعوان)، وليس معوان كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

هنا وهناك بكتل من صخر رملي مكسر، يتآكل ببطء ولكنه بكل تأكيد يذوب داخل رمال الصحراء. لمحت سلسلة سابل ذات التلال المرتفعة نسبياً ناحية غرب الشمال الغربي، إلى البعيد. بينما تقع على مسافة ليست بالبعيدة من موقعنا، سلسلة تسمى وريك، يقال أنها تمتلئ بالبرك المائية بعد الأمطار، وتقع ناحية جنوب الجنوب الغربي.

دخلنا إلى منخفض الخور الواسع الضحل بعد مسيرة ستة أميال من نعوان، و(١٥) ميلاً من الحمى، ويبلغ عرضه ميلين ويكسوه غطاء نباتي كثيف غير أنه ميت، ولعله لم يتلقَّ أية أمطار لعدد من السنوات. تحصلنا على زوج من غزال الأدمي في هذا الوادي، أثناء عبورنا، كما جمعت قرناً لغزال ريم ميت. يبدأ هذا الوادي، فيما يبدو، في مكان ما عند سفوح تلال سابل، ودخلنا، فيما يليه، وعبرنا منخفضاً مماثلاً متجهاً شرقاً، وبه غطاء نباتي مماثل وميت، من عند سلسلة وريك. كان المنظر موحشاً، حقيقة، خالية حتى من طائر صحراوي، وباستثناء الغزالين، فهي خالية أيضاً من أية علامة للحياة. يقع تل قطن الآن إلى الشمال الغربي من موقعنا ويقع النقا، الذي لا نزال نراه، تجاه الشمال الشرقي. استدرنا الآن إلى الجنوب فوق أرض رملية هي متموجة قليلاً، مجتمع صحراوي، تتخلله سلاسل لصخر رملي تكنسه الرمال، يسمى بغموض برق الأباعير وهو يكوّن الحد الفاصل بين مصرف الحمى من ورائنا ووادي حبونا من أمامنا. كنا هنا على ارتفاع (٤٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، أو تقريباً، على نفس ارتفاع آبار الحمى.

هبطنا بلطف من هذا الموقع إلى سهل واسع منخفض يسمى المنقعة أو منقعة الترييث والتي كان سطحها البركاني مغطى بكثافة بنبات النجعة الجاف، ويبدو السهل وكأنه يكون خط صرف لتلال سابل ووريك. سرنا فوق هذه الأرض لمسافة

ثلاثة أميال، حينما جذب انتباهي تجمع غريب لصخور جرانيتية اضطررت للتوقف لفحصها. يلاحظ وفرة الصخور البارزة في هذا المكان، غير أنه لم يساورني الشك بعد فحص مطول لهذه المجموعة من الجلاميد خاصة، أن ترتيبها هذا هو من عمل الإنسان، ربما كانت موقعاً لتجمع قبلي بدائي للعبادة أو أية أغراض أخرى، في الحقيقة فقد كان الموقع معبد![1].

يمكن استيعاب الترتيب الفعلي للجلاميد وذلك بالرجوع إلى المخطط رقم (١)، غير أنه يمكن شرحه إذ أن المحور الرئس للمجموعة كان يمر بالحجارة الرئيسية (X-y-Z)، بزاوية تتراوح بين (٣٤٤) إلى (١٦٤) درجة، أو تقريباً تجاه شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي. كان الجلمود (X) جلموداً منفرداً، بينما كان الجلمود (Y) مكوَّناً من مجموعة من جلمودين كبيرين يبعدان عن بعضهما بخطوتين ونصف الخطوة، ومعهما اثنان آخران أصغر منهما يقعان فيما بينهما. ويبدو أن الجلمود (Z) كان العنصر الرئس للمجموعة كلها، ربما قام مقام المذبح للقرابين وكان مكوِّناً من حجر واحد كبير وآخر موضوع أعلى منه ومن فوقه. لا يوجد ما يشير إلى أن الترتيب دائري لهذا العدد المعتبر من الحجارة المكوّنة للمجموعة.

يحتوي التجمع عند طرفه الشمالي على ثلاثة جلاميد (X)، (X1)، و (X2)، تمتد على زاوية (١١٠) درجة من عند (X) لمسافة (١١) خطوة، أو قل ٢٧,٥ قدم. امتدت ثلاثة خطوط بالأسلوب نفسه من الحجارة من عند (X) بزاوية (١٢٠) درجة (١٥ خطوة)، و(١٢٧) درجة (١٧ خطوة)، و(١٤٨) درجة

(١) لا يستبعد أن يكون مكاناً للعبادة؛ لأن منطقة نجران معروفة منذ القدم بالعديد من الديانات السماوية والوضعية. (ابن جريس).

مخطط رقم (١)

موقع الشمس في منقع

(٣٤ خطوة) ليتكون من هذا الخط المركزي من عند (X) عبر الفجوة في (Y) إلى (Z) بزاوية (١٦٤) درجة (٣١ خطوة). امتد بعد ذلك، خط من عند (X) بزاوية ١٧٧ درجة (٣٩ خطوة) وآخر بزاوية (١٩١) درجة (٢٩ خطوة) وعليه فإن إجمالي عدد الحجارة كان أربعة، كان الحجر الثاني منها -يقع على بعد تسع خطوات من (X)- هو لنقطة البؤرة لثلاثة خطوط أخرى على زاوية (٢٠٣) درجة (٢٢ خطوة)، (٢١٠) درجة (١٩ خطوة) و (٢١٤) درجة (٧ خطوات)، بالتتالي. يمكن القول بصفة عامة، أن كل الأشعة من عند (X)، مركز الإشعاع، تقع بين (١١٠) درجة و (٢١٤) درجة، شاغلة أكثر من ربعية البوصلة بقليل. يجب أن أترك مغزى وضع هذه الصخور للخبراء المتخصصين في مثل هذه الأمور، قانعاً نفسي بالحقائق المؤكدة بعناية إلى أقصى حد، في الموقع. كانت كل الحجارة المستخدمة في المجموعة من جرانيت خشن غير مشذب.

قضيت ما يقارب الساعة وأنا أدرس هذا النصب التذكاري، بينما كان بقية الرفاق قد تقدموا أمامي بمسافة الميل الواحد إلى حيث ظل مناسب لجلاميد جرانيتية، حيث استقروا لإعداد وجبة منتصف النهار وهم في انتظار وصولي. كان هذا فيما يلي أول مجريين لشعيب قطن، ووضح لي وأنا أتوجه للحاق بمجموعتي، أن مسارنا، قد تغير قليلاً منذ هبوطنا من قاسم برق الأباعير، ناحية الجنوب الغربي وأننا قد تحولنا إلى الخلف من عند الأراضي الصخرية الرملية الشرقية إلى ناحية الأرض البركانية الممتدة إلى البعيد إلى سلسلة السراة التي بالكاد تُرى، وبرزت بعض سماتها المرتفعة في مدى الرؤيا ناحية الجنوب الغربي.

لم نصرف كثيراً من الوقت في الطعام، وسرعان ما واصلنا السير عبر مجرى شعيب قطن في طريقنا إلى بئر الحصينية على الجانب الأيسر لوادي حبونا العظيم

الذي يبعد حـوالي ثمانية أميـال من «المعبد» وحوالي (٣٢) ميـلاً من عند حمى، وكغيره، كان ارتفاعه (٤٣٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان مجرى حبونا محجوباً عنا، ونحن نقترب منه، بسلسـلة محددة لجانبه الأيسر، غـير أننا كنا نلمح أجزائه العليا وخطـوط غطائه النباتي ذات اللون الأخضـر الرمادي، إلى البـعيد، ناحـية الأفق الشرقي. كان محيط البئر نفسه حوالي (٢٢) قدماً ويقع على الجانب الأيسر لبطن السـيل، والذي كان مبطناً بمتـانة ببلوكات جـرانيتيـة على كل امتـداده حتى مستوى الماء على عمق (١٤) قامة.

عسكرنا بجـوار صخرة لسلسـلة مواجهة لـلوادي العريض، الممتلئ بأشـجار الطلح المظلية الـشكل، وأشجار الأرطى -هكذا يسـميه القـحطانيون- واليامـيون يدعونه عبالا[١]، وجنبات أخرى أكسبته منظراً باهتاً رتيباً غير أن هذا لم يؤثر على قناعتي، حسب علمي، بأنني أول أوربـي يلقي نظرة على هذا الوادي الصحراوي المشهور في الجزيرة العربية. وقد كـان خالياً من المياه في هذا الوقت، بالطبع، غير أن البئر قـد جذبت إلى ناحيتهـا حشداً كبيراً من بـدو يام الذين كان وجودهم هنا خلال الصـيف سبباً لجـذب مجموعـة من جامعي الضرائب الحكومـيين، يرأسهم الصبي محمد، وعـمره (١٥) سنة، ابن إبراهيم النشمي حاكم نجران[٢]. كان أول

(١) ذكر المصطلحات وأسـماء الأشجار وغيرها من المفردات المحلـية تختلف كثيراً ما بين مـنطقة نجران، وما جاورها من المناطق السعـودية مثل:ـ مناطق عسير، وجازان، والرياض. بل إن الاخـتلاف في اللهجات أحيـاناً يكون بين قرى وعـشائر وقـبائل المنطقـة الواحدة. ولهذا فـإنني أحث طلاب الدراسات الـعليا، والأقسام الأكاديمية في الجامعات السعودية أن تولي مثل هذا الموضوع اهتماماً من البحث والدراسة. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن إبراهيم النشمي، أمير نجران، أثناء زيارة فيـلبي للمنطقة، انظر: عبدالرحمن السبيت. **رجال وذكريات مع عبدالعزيز**، ص١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

من حيَّاني عند وصولي إلى هنا هو يحيى بن نصيب الذي أحضرت له خطاباً من أخيه حسين، وقد استأمنني عليه في أبها لكي أقوم بتسليمه له في نهاية الأمر. كان يحيى في شكله العام شبيهاً بأخيه.

اعترضت ملاحظاتي للنجوم تلك الليلة سحب، أترقب انكشافها، ملأت السماء، برغم أنني جلست طول الليل، ذلك لأهمية أن أقوم بتسجيل هذا الموقع بدقة. قررت، لذلك، أن أقضي اليوم التالي وليلته هنا ولم يتملكني الأسف على ذلك، حيث أنني رأيت الكثير من رعاة يام، وتعلمت الكثير منهم عن بلادهم كاملة. زارني عند الساعة السادسة صباحاً الصغير محمد النشمي ومجموعته، والذين كانوا يعسكرون وسط أشجار الطلح في وسط الوادي، في طريقهم إلى سلوة، وهو البئر التالي (وعمقه ١٤ قامة)، ويقع أعلى الوادي في واحة صغيرة، ذلك لأنهم يقومون بجمع الضرائب. قيل إن الرحلة تستغرق نصف يوم من هناك إلى واحة حبونا الرئيسة التي تتضمن أيضاً -الخضراء، والشط الأعلى، والقابل، إلخ-، التي كان عليَّ أن أزورها شخصياً في وقت لاحق، ولا أحتاج لوصفها الآن. كان النهار كريهاً إلى حد بعيد، بعد أن ظللت الليل كله يقظان في الحصينية وكانت الرياح قوية والرمال متطايرة، غير أنني ظللت منشغلاً بالزوار طيلة فترة الصباح، زارني جمع من الرجال بوجوه فظة ومعهم أطفال يشبهون الإناث، كانوا قد أحضروهم معهم على أمل أن أقوم بتوزيع هدايا أو بعض المال. كان أحد زواري واسمه حمد الخثيلي، رجلاً كبير السن جداً، يعرف باسم راعي البئر أو (حارس البئر) وأظنه ينوب عنهم أثناء غياب القبيلة في المراعي.

تحاشيت الجشع العام بأن طلبت من الأطفال إحضار الكائنات البرية التي في المنطقة إذا رغبوا في جائزة مناسبة، وبهذه الطريقة ازدادت مجموعتي بأرنبين بريين، وبعض السقنقورات (دمص) وبعض سحالي (تيهي) كما أحضر لي فرج طائر أبي اليسر.

كنت قد استلقيت بعد تناول وجبه الغداء مدة أربع ساعات لتعويض فترة نوم ليلة الأمس ثم تسلقت من بعدها إلى موقع على سلسلة جرانيتية على الجانب الأيسر لمجرى الوادي لأجل أن أقوم بمسح المنظر المحيط. كان دليلي لهذه الحملة هو حسن بن حسين التابع لفخذ شيخ أبو ساق من آل فاطمة، فرع يام[١]. كان الجانب الأيمن لوادي حبونا، المواجهة لمعسكرنا، كتلة مصمدة من تلال تسمى شرا، ترتفع إلى (٥٠٠-٦٠٠) قدم في المتوسط وتمتد حتى تخوم وادي نجران في البعيد. تكون منها، بذلك، أنف للهضبة العالية الرئيسة مع وجود نقاط عديدة بارزة منها -عمود الرمض، وبدوه، وفريق، إلخ- وكل هذه تقع إلى يمين الطريق الذي يتجه إلى نجران، والذي يجري تجاه جنوب الجنوب الشرقي من هذا الموقع، وعبر فجوة[٢] في السلاسل البارزة إلى الشرق من الأنف. كان عرض الوادي نفسه ميلاً كاملاً من الجانب إلى الجانب وتنتشر تلال برقة حليث، عند الطرف الأقصى للأنف، في رمال الصحراء. تقع سلسلة سوداء، محززة فيما يلي حليث، تسمى ضبع، بينما إلى جهة الجنوب من معسكرنا شمخت الأرض الرأسية خشم

(١) حسن أبو ساق، أحد الشيوخ الرئيسين في قبائل يام ببلاد نجران. وللمزيد عن أسرة آل بوساق، انظر: عاتق البلادي، **بين مكة وحضرموت**، ص ٩٧ ــ ٩٩ . (ابن جريس).

(٢) تقع هذه الفجوة بين سلسلة المختلف وتلال برقة حليث. (المؤلف).

خشخاش، والتي يخترقها طريق الجمال عبر الأراضي الجبلية إلى نجران. توجد بعض الهضاب المنخفضة في الوادي نفسه، تجاه الجنوب الشرقي من موقعنا منها: مشارق وأبرق حسن.

ينطلق مجرى السيل، في اتجاه الوادي من عند معسكرنا، ماراً بأبرق حسن ومشارق وإلى البعيد تجاه المعلم الأرضي البارز خشم العان إلى الشرق من موقعنا عند الطرف الشرقي لسلسلة برق الأباعير، على بعد عشرة أميال، حيث يوجد بئر قديم مهجور يسمى ثليقة عند سفح المجرى. لا توجد آبار بعد تلك النقطة غير أنه قد يعثر على ثلاثة برك أو منخفضات تمسك بمياه السيول (ملازم) خلال المسافة المقدرة بأربعة أو خمسة أميال فيما يلي ثليقة، هي بالاسم: زبادة وأم خضا وأم جرة. يمتد الوادي أعلى معسكرنا ناحية الغرب مسافة ميل واحد، ثم يدور تجاه غرب الجنوب الغربي ويضيق إلى عرض نصف الميل وهو مكوَّن من سلاسل جرانيتية منخفضة هي: شرا إلى الجانب الأيمن وعان الجمل على الجانب الأيسر. تبدأ كلها من مسافة ثلاثة أميال من عند بئر الحصينية. يمكن رؤية جبل صخا وهو أعلى سلسلة[1]، من خلال الفجوة بين هذه السلاسل.

هدأت الرياح عند الساعة الرابعة عصراً، وخف معها الغمام الرملي، غير أن السماء ظلت متوعدة ومملؤة بالسحب. كانت خيام البدو تنتشر في كل جوانب الوادي ولكل مجموعة من الرعاة مجموعة الماعز المرافقة، ولكن لا يوجد خرفان. أفادني دليلي أن مجرى حبونا معروف بهذا الاسم مسافة عشرة أميال ما يلي خشم العان، وأنه يسمى أيضاً عن حبونا، قبل أن يختفي في رمال الصحراء. كل هذه

(١) صخا: يُنطق أحياناً باسم (صخي)، بكسر الصاد، والباء بعد الخاء معجمة. (ابن جريس).

الأراضي، كما ذكر، هي أرض المها (الوضيحي) والمعروف أن هذه الحيوانات تأتي إلى الوادي إلى أن تصل الحصينية وإلى أبعد منها. وقد اعتاد البدو أن يصنعوا أحذية الصندل من جلود المها، غير أنه في هذه الأيام فإن إطارات السيارات المهملة التالفة تستعمل في صناعة الصنادل مع تثبيتها بمسامير غير مغمدة لإمساك الأجزاء. يبدو أن هذه المنطقة خالية من البعوض، غير أن طباخنا، محمد بن جابر أصبح طريح الفراش بالحمى وذلك أثناء إقامتنا هنا، وكذلك كان حال سعد، الذي تعافى تقريباً من صدماته الأخلاقية.

كان أحد زائريَّ غريباً من محافظة حضرموت، وهو رجل كبير السن اسمه ناصر بن شماخ من عشيرة مردعة من نهد[1]، والذي سيلحق بحملتي للجنوب في سحر بصفته دليلاً. كان في طريقه، في هذه الأثناء إلى خب والجوف (بلاد دهم) في حملة جمع ديون، والتي وعد، بعد عودته منها أن يرافقني إلى شبوة، وكان عند وعده. تستغرق الرحلة، كما قال، يومين من نجران إلى خب، ويومين من خب إلى بئر بوعة ويوماً واحداً من بئر بوعة إلى الجوف. وتستغرق الرحلة يوماً واحداً إلى دحيضة (وهو وادٍ صحراوي) ويوماً آخر إلى تلال رويك، ويوماً في تل العرين ويوماً من هذا المكان إلى شبوة. لم يكن يخطر بذهني أنني سأرى كل هذه الأماكن وفي وقت قريب. كان العرض المسبق للرحلة -بصفة عامة- الذي اقترحه عليَّ ناصر، صادقاً وصحيحاً في كل أساسياته. ستأخذه رحلته الخاصة القادمة عبر السفوح السفلى لوادي نجران إلى الخلقة خلال يوم واحد، ومن

(١) نهد: ــ قبيلة عربية تعود في أصولها إلى قبائل قضاعة، وينتهي نسبها إلى معد بن عدن، ولا زال فروع من هذه القبيلة يقطنون منطقة شرورة من بلاد نجران حتى اليوم. (ابن جريس).

هناك عن طريق حضبة إلى خب ومنها إلى الجوف. قدم لي ناصر أيضاً أسماء أقسام كثيرة لقبيلته نهد كما يلي: (١) مردعة -قسمه الخاص، بالطبع سيكون الأول في الترتيب-. (٢) قمَّزين (٣) آل الذيب (٤) اليميني (٥) آل حدجان (٦) آل بدر (٧) حتيريشة (٨) الحكمان -وهي القسم الرئيسي ويتمركز في قعوضة-، (٩) مقيزة (١٠) آل منيف (١١) السرمان (١٢) آل حويل (١٣) العطاير (١٤) آل عرفان (١٥) بني شبيب (١٦) آل الزوع (١٧) آل عبري (١٨) آل نهيد (١٩) المقارم. تقع كل هذه الأقسام لنهد، كما قال، بين وادي دحر -ويبعد مسيرة أربعة أيام من شبام ويومين من شبوة- وبين سفح وادي حضرموت (قعوضة)[١].

كان ناصر رجلاً غريباً، كالشبح، قليل الحجم، مسناً ذا لمعان في عينيه يكذب روحه الجشعة. غير أنه بصفة عامة قد خدمني بجدية، وكنت ممتناً للظروف التي جمعتني به والتي أعزوها إلى تلك السحب التي حجبت النجم القطبي على امتداد الليلة السابقة. فلم أتمكن من إجراء ملاحظاتي للنجوم إلاَّ عند منتصف الليلة الثانية، وقد أويت إلى فراشي وضميري صافٍ في انتظار تجارب الغد الممتعة.

(١) وللمزيد عن قبيلة نهدُ وعشائرها في نجران وأجزاء من بلاد اليمن، انظر: عاتق البلادي، **بين مكة وحضرموت**، ص ١٥٠ ــ ١٦٢ . غيثان بن جريس، نجران، جـ١، ص ٤٢ ــ ٤٦ . (ابن جريس).